الظـــــــل (من الأدب العالمي)

كان صاحبنا رجلاً مرهف الحس، ترك بلاده الباردة وسافر الى تلك البلاد الاستوائية، ليعمل ويتعلم ويستلهم الحضارة من منابعها الأصلية على حد قوله. ولما كان شاباً قليل الخبرة بالحياة، فقد امتلأ صدره بآمال عظام.

كان كل شئ تقريباً مقبولاً محتملاً إلا حرارة الطقس وفي أثناء النهار كان صاحبنا يشعر بالإنهاك الشديد وهو يقف تحت الشمس العمودية، وظله متضاءل تحت قدميه. ولكن ما أن تغرب الشمس وتهب رياح المحيط العليلة ، حتى ينتعش صاحبنا ويجلس الى مكتبه يحاول صياغة أفكارة الرقيقة عن الحق والخير والجمال. وبينما تحوم الهوام حول المصباح ، كان ظله يستلقي مديداً على حائط الغرفة. فإن جاز القول، كان الرجل وظله يستردان حيويتهما بعد الغروب!

وعبر الشارع كان صاحبنا يرى من شرفته بيتاً صغيراً يحيطه الشجر والغموض، فرغم أن النوافذ كانت تبدو مضاءة كل ليلة وقد انبعثت منها الموسيقى، إلا أن أحداً لا يظهر في أية نافذة من أصحاب المنزل أو ضيوف هذه الحفلات اليومية!

ذات ليلة، كلَّ صاحبنا من الكتابة، فخرج الى الشرفة وقد اضطرم وجدانه بالموسيقى الساحرة التى تصل الى سمعه من الحفلة المعتادة لدى الجيران، وإذ وقف فى الشرفة ومن خلفه مصباح الغرفة، سقط ظله على جدران البيت المقابل، ذلك البيت الغامض الذي أشرنا إليه. وفي لحظة كالحلم، تمنى صاحبنا أمنية مستحيلة. " آه لو كان ظلي يتركني ليدخل هذا البيت ثم يعو ليخبرني بسر هذه الموسيقى غير الأرضية وعما يدور في هذه الحفلات الغريبة؟!". فكر صاحبنا ثم ضحك من فكرته ودخل لينام.

وفي الأيام التالية لاحظ صاحبنا أن نوافذ البيت المقابل لم تعد تفتح وصوت الموسيقى الخلاب لم يعد يسمع. وذات ليلة وصاحبنا يجلس مكتئباً الى مكتبه، رفع يده أمام المصباح وإذا به لا يرى لها ظلاً!. ظن أنه يحلم فوقف أمام المصباح، ولكن ظلاً لم يظهر على الحائط!. ومرت أسابيع وصاحبنا يتعمد السير تحت وهج الشمس، ولا ظل هناك! ولما كان صاحبنا رجلاً عاقلاً، أدرك أن إعلانه لهذا لن يكون في صالحه، وبعد شهور قليلة أنهى مهمته وعاد الى بلاده الباردة.

ظن صاحبنا أن ما يكتبه عن الحق والخير والجمال سوف يجد من يتجاوب معه في بلاده، ولكن ياللحسرة، أهمل الناس كلماته، وتضاءلت مبيعات كتبه. ومرت سنون، وأخيراً انزوى في بيته عليلاً من الفقر وخيبة الأمل!

وذات ليلة طرق بابه طارق، فنهض مندهشاً ليفتح، فما كان بابه ليدق كثيراً. وإذ فتح الباب رأى رجلاً في زي أسود أنيق، كان شكله مألوفاً ولكنه لم يستطع أن يتذكر أين رآه من قبل.

- هل تسمح لي بالدخول
- تفضل، ولكن هل بيننا معرفة سابقة؟
- بالقطع أنت لا تذكرني، فقد افترقنا منذ سنوات طويلة.
- افترقنا؟!
- هل تذكر تلك الليلة الإستوائية حين تمنيت أن يفارقك ظلك، أجل أنا ظلك!!
- مستحيل !
- هل بحت بما حدث لأي إنسان؟
- لا، ولكن!!
- أنا ظلك ، لماذا لا تصدقني؟

لاحظ صاحبنا أن زائره يرتدي ساعة مرصعة بالماس، وفي عنقه قلادة لا تقدر بثمن، وفي أصابعه خواتم من الزمرد، وقرر أن يسايره حتى يستجلي حقيقة الأمر.

- أصدقك، والآن ألا تخبرني بما حدث منذ تلك الليلة!
- لقد استجبت لأمنيتك وتركتك ودخلت الى ذلك البيت مصدر الموسيقى الساحرة
- وماذا رأيت؟ سأل صاحبنا في لهفة
- رأيت كل شئ
- وماذا عرفت؟
- عرفت كل شئ
- أرجوك زدني تفصيلاً
- التفاصيل لا تهم! ولكن المهم هو أني خرجت من ذلك البيت وقد تحولت من ظل الى إنسان. والغريب أنني احتفظت بخصائص الظل، فتمكنت من التسلل الى كل مكان وأي مكان دون أن يشعر بي أحد، فاصبحت أسرار الجميع في متناولي. وكما ترى أهداني تجار المجوهرات أغلى تحفهم، وقدم لي رجال الأعمال والسماسرة أخلص نصائحهم. وهكذا جمعت في وقت قليل ثروة طائلة وصار لي نفوذ واسع. ثم تذكرتك وقررت أن أزورك. أما زلت تكتب عن الحق والخير والجمال؟
- ألا تراها مواضيع جديرة بالكتابة؟!
- طبعاً، طبعاً، وهل يشتري أحد كتبك؟
- .....
- هذا ما ظننت. إسمع، إني ذاهب ال أشهر مصح سياحي حيث يتجمع عادة في هذا الوقت قمم المجتمع في العالم، واتوقع أن أعقد عدداً من الصفقات الهامة. لم لا تأتِ معي؟ لا تحمل هماً للنفقات. خيرك سابق!

تردد صاحبنا قليلاً ثم استثارته الفكرة. وهكذا مضيا معاً، الإنسان وظله، في رحلة للنقاهة والاستثمار.

وفي المصح الشهير كان صاحبنا يقضي أغلب وقته يقرأ في ضوء الشمس، وقد بدأ يسترد عافيته، بينما تعرف الظل الى فتاة مرموقة هي إبنة ملك البلاد. كانت هذه الأميرة قد حضرت لتعالج من مرض غريب، فقد كانت تبصر أكثر من اللازم! ولما كان زوار والدها لديهم غالباً ما يودون إخفاءه، فقد سببت حالة الأميرة احراجاً كبيراً لجلالة الوالد وزواره الأفاضل! اعجبت الأميرة بالظل، ولفت انتباهها غزارة معلوماته ودرايته بأسرار الناس، وخفته الفائقة في الرقص.

وذات صباح، ذهب الظل الى صاحبنا وهو جالس يتشمس، وتحدث إليه حديثاً جاداً. لقد اتفق الظل مع الأميرة على الزواج، وقرر الظل أن يصطحب الإنسان معه! "إسمع ستأكل وتشرب مثلي، وستقيم معي في قصر الملك، وسيخصص لك جناح مماثل لجناحي، وستنال كل ما أنال من متع وملذات، فقط هناك شرط واحد! عندما تسطع الشمس وأجلس في شرفة القصر الى جوار الأميرة زوجتي، عليك أن تأتي وترقد تحت قدميَّ كظلٍ لي.

- هذا خداع! أنا إنسان وأنت الظل، كيف تجسر على خداع بنات الملوك؟! سأخبرهم بكل شئ وأكشف حقيقتك، أنك مجرد ظل، وهم، وأنا هو الإنسان الجقيقي.
- لن يصدقك أحد
- لن أقبل أبداً أن أتحول من إنسان الى ظل لتبدو أنت كإنسان

ترك الظل صاحبنا ومضى الى أميرته:

- هل تذكرين ذلك الرجل الشاحب الذي يلازمني دائماً ؟
- نعم، واعجب كيف لشخص مرموق مثلك أن يصادق أحداً من الطبقة الدنيا، ولكن، من هو؟

- إنه ظلي، ولكنه في الأيام الأخيرة اختلط عقله، فاصبح يظن أنه هو الإنسان وأني أنا الظل، تصوري! أخشى أن يسبب لنا حرجاً أمام المدعوين في حفل الزفاف.

تدخل الملك قائلاً – إذ كان حاضراً الحديث – إن هؤلاء الأدنياء يملأهم الحقد دائماً على الناجحين. على العموم لا تحمل هماً، سأصدر الأمر بالقبض عليه.

وفي المساء، أضيئت أنوار القصر ، وتوهج الميدان الملكي بالألعاب النارية، واحتشد الناس يرقصون ويشربون في صحة زفاف الأميرة، وارتفع صوت الموسيقى والهتاف الى عنان السماء. ولكن صاحبنا لم يسمع شيئاً من هذا كله. فأخذاً بالأحوط، كان الملك قبيل الزفاف، قد أصدر أمراً بقتله.